إهداء

إلى صاحبة الجلالة/الفلسفة
وحواريِّها الشهيد سيفيرينوس بوئثيوس
«الروح المباركة» و«آخر الرومان»
الذي لم يَقُل «حال الجريض دون القريض»[1]
واستطاع، بفضلها، أن يُغرِّد بين شدقَي الموت،
ويسطر «عزاءه» لكلِّ العصور؛
«عزاءه» الذي صحبته أشهرًا وتعلَّمتُ منه
ثم عَلَّمتُه العربية،
وها هو الوليد حيًّا لم تَقتُلهُ الترجمة
يَصرُخ بعذوبة،
ويُكلِّم الناس في المهد.

عادل مصطفى

[1] قالها الشاعر عُبَيد الله بن الأبرص للملك النعمان حين طَلَب منه أن يُسمعه شعرًا قبل أن يقتلَه! وتعني حالت الغُصة دون قول الشعر، وتُضرب مثلًا لكلِّ ما يعوق دونَه عائق.

عزاء الفلسفة سفرٌ ذهبيٌّ خليقٌ بأن يشغل وقت أفلاطون أو تولي.[1]

جيبون، تاريخ أفول الإمبراطورية
الرومانية وسقوطها

بوئثيوس هو الروح المباركة التي تكشف زيف العالم لكلِّ من يُصغي إليها.

دانتي، الكوميديا الإلهية

الكوميديا الإلهية برُمَّتها يمكن اعتبارها توسعًا عظيمًا لتصور بوئثيوس عن صعود الروح إلى تأمل عقل الله وعودتها إلى وطنها الحقيقي في مخطط العالم.

فيكتور واطس،
مقدمة ترجمته لعزاء الفلسفة

عزاء الفلسفة هو الكتاب الذي أنقذ فكر العصور الوسطى.

و. ب. كير، العصور المظلمة

[1] «تولي» Tully هو شيشرون (ماركوس توليوس) الخطيب والكاتب والسياسي الروماني الشهير.

لم يُؤثِّر فيلسوفٌ قط في كُتاب العصور الوسطى، ويَسر منهم مَسرَى الدم في العروق، مثل بوئثيوس: خُذ أيَّ كاتبٍ شئت ولسوف تجد فيه وجدانات بوئثيوس، بل ستَجد أن كلماته ذاتها هي كلمات ذلك الروماني القديم العَلَم.

ريتشارد موريس،
مقدمة ترجمة تشوسر لعزاء الفلسفة

هذا الكتاب

هذا الكتاب ترجمة كاملة لنص «عزاء الفلسفة» لسيفيرينوس بوئثيوس، عن الترجمات الإنجليزية التالية:

(1) Boethius, The Consolation of Philosophy. Trans. W. V. watts. Revised Edition, New York: Penguin Classics, 1999.

(2) Boethius, The Consolation of Philosophy. Trans. W. V. cooper. New York: The Modern Library, Random House, 1943.

(3) Boethius, The Consolation of Philosophy. Trans. S. Beck. Athenaeum Reading Room, 1996.

ملاحظة: جميع العناوين، والعناوين الفرعية، ليست من نص بوئثيوس الأصلي، وهي مستقاة من ترجمة (المشار إليها)، وجميع الشذور الافتتاحية ليست من النص الأصلي، وقد أشرنا في كل شذرةٍ إلى صاحبها.

تصدير

الزواج المقدس بين التراث الكلاسيكي والمسيحية

بقلم أ.د. أحمد عتمان

يُثير النص المترجم، والذي نقدِّم له، تساؤلات كثيرة ومشكلات عويصة، المؤلف نفسه أنيكيوس مانليوس سيفيرينوس بوئثيوس Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٨٠–٥٢٤م) قد أصاب مجدًا وعزًّا بالغين في حياته، التي انتهت بالسجن والإعدام، فهو رجل سياسة ومفكر مسيحي، صاحب منصب عالٍ وثراء فاحش ومقرب لرجال السلطة الإمبراطورية.

أما مؤلفه الذي نحن بصدد الحديث عنه عزاء الفلسفة Consolatio Philosophiae، أو في مخطوطات أخرى في عزاء الفلسفة De Consolatione Philosophiae فهو من المؤلفات المحيرة، حيث أربك الكثير من النقاد والدارسين وما زال حتى اليوم يثير الحيرة والدهشة والتساؤلات.

بالنسبة للعنوان ومغزاه، فلم يكن الأول من نوعه، إذ سبقته مؤلفات عدة في تاريخ الأدب الإغريقي واللاتيني، نذكر منها على سبيل المثال مؤلفات الشاعر الفيلسوف سينيكا بالعناوين التالية:

- عزاء إلى ماركيا Ad Marciam de Consolatione.
- عزاء إلى بوليبيوس Ad Polybium de Consolatione.
- عزاء إلى هليڤيا Ad Helviam de Consolatione.

ويحمل العنوان الأخير اسم هليڤيا أم سينيكا التي يعزيها المؤلف في نفي ابنها أي سينيكا نفسه.

أما إذا كان الهدف الرئيس من مؤلف بوئثيوس هو الحث على أن يصمد الفيلسوف في وجه الشدائد، فإن هذا بالضبط كان القصد من مؤلف سينيكا بعنوان «في صمود الحكيم» De Constantia Sapientis.

لكن الشكل الأدبي الذي صيغ فيه عمل بوئثيوس يختلف تمامًا عن «تعازي» سينيكا، التي جاءت أشبه ما تكون برسائل تخاطب الشخص المنكوب، هذا الشكل الأدبي هو الأكثر إثارة للحيرة والدهشة فهو ليس رسالة، ولا هو مقالة، ولا هو دراسة أو مجرد تأملات، وإنما هو عمل أدبي قُح يفيد من دراية المؤلف بعدة أشكال أدبية، منها تعازي سينيكا المشار إليها، ومنها محاورات أفلاطون، ومنها الساتورا التي بعد قليل سنتحدث عنها، ولكن من الخطأ أن ننسب عزاء الفلسفة إلى شكل أدبي واحد من هذه الأشكال، دون أن ننفي تأثرها بهذه الأشكال جميعًا.

ولا يتفق كاتب هذه السطور مع ما ذهب إليه بعض النقاد والدارسين، حين رأوا في عزاء الفلسفة ساتورا مينيبية، واعتمدوا فيما ذهبوا إليه على حقيقة شكلية فعلية، ونعني أن العمل يخلط الشعر بالنثر، ومع اعترافنا الواضح بهذا التشابه الشكلي، إلا أنه شتان ما بين عزاء الفلسفة والساتورا المينيبية، ومن حق القارئ الكريم أن نوضح له أولًا ماهية الساتورا المينيبية أو الهجائية المينيبية Satura Menippea، فهي نسبة إلى مينيبوس من جادارا في سوريا (النصف الأول من القرن الثالث ق.م)، وهو مبدع الأسلوب الهزلي الساخر من ناحية، والجدي من ناحية أخرى (Spoudogelation)، والذي يخلط بين الشعر والنثر، علمًا بأن كلمة ساتورا Satura اللاتينية تحمل في معناها الأصلي الخلط في الأساليب والموضوعات، وهذه سمات عامة في شعر الهجاء اللاتيني ابتداءً من لوكيليوس وحتى يوڤيناليس، وأثر

مينيبوس في مواطنه مليا‌جروس Meleagros ولوكيانوس Lucianus وفارو Varro صاحب هجائيات مينيبية Saturae Menippeae.

وإذا أردنا أن نضرب مثلًا على «الهجائية المينيبية» من الأدب اللاتيني فلن نجد أفضل من مؤلف سينيكا الشهير الذي حفظت المخطوطات عناوين له كثيرة، نذكر منها العنوانين التاليين: «أبو كولوكينتوسيس (= التقريع أي مسخ الإنسان إلى نبات القرع» Apocolocyntosis)، وهو عنوان له صلة بمبدأ تناسخ الأرواح في الفكر الفيثاغوري وانتقال روح الإنسان بعد الموت إلى تقمص أحد النباتات كـ «القرع» وما إلى ذلك، أما العنوان الثاني فهو «سخرية من موت كلاوديوس» Ludus de Morte Claudii، ذلك أن هذا المقال عبارة عن هجائية مينيبية Satura Menippea تسخر من تأليه الإمبراطور كلاوديوس بعد موته وتجمع بين الشعر والنثر.[1]

فأين عزاء الفلسفة من تلك السخرية المضحكة في عمل سينيكا «التقريع»؟ من الجلي إذن إننا لا يمكن أن نعتبر «عزاء الفلسفة» عملًا هجائيًّا أو هزليًّا، فليس فيه من «الساتورا» سوى سمة الخلط بين الشعر والنثر.

الواقع أن هذا المزج بين الأجناس الأدبية المختلفة في عزاء الفلسفة لا يضاهيه سوى المزج الواضح كذلك في المضامين الفكرية والفلسفية في ثنايا العمل نفسه، ففي هذا العمل تجد إشارات واضحة أحيانًا وتلميحات خفية أحيانًا أخرى لكلِّ مفردات التراث الإغريقي واللاتيني من هوميروس إلى يوريبيديس وأريستوفانفيس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ... إلخ.

معظم المدارس الفلسفية الإغريقية ممثلة تمثيلًا مقصودًا في هذا العمل من الأبيقورية إلى الرواقية، ومن الكلبية إلى الغنوصية، ففكرة الأسرار والكشف عنها للمخلصين الأصفياء وراء ظهور آلهة الفلسفة أو الفلسفة مجسَّدة لواحد من صفوة أتباعها ألا وهو بوئثيوس.

ويقودنا هذا الحديث إلى أخطر مشكلة في هذا النص، فنحن أمام مفكر مسيحي لاهوتي له أكثر من مؤلف في اللاهوت المسيحي، يمر بلحظات عمره الأخيرة ويودع الدنيا بعمل سماه عزاء الفلسفة، ولا يذكر كلمة واحدة عن العقيدة المسيحية، أليس هذا أمرًا غريبًا؟ والأغرب

[1] عن فن الساتورا ونشأته وطبيعته وعن سينيكا الفيلسوف الشاعر راجع: أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري حتى نهاية العصر الذهبي ط٢ (دار المعارف، ١٩٩٥م) ص١١٢–١١٧.
المؤلف نفسه، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري في العصر الفضي (إيجيبتوس، ١٩٩٠م) ص١١٣–١٣٣.

أن هذا المسيحي — وهو أحد الشهداء بحق — يركز حديثه تمامًا في التراث الكلاسيكي الوثني، ومن النظرة الأولى يستوقفنا العنوان «عزاء الفلسفة» فالفلسفة مجسدة هي اللاعب الأول Protagonist في هذا العمل الأدبي الإبداعي، هي التي توجه كل صغيرة وكبيرة، وهي التي تقود المؤلف إلى بر الطمأنينة ورباطة الجأش بعد الجزع الذي استولى عليه تمامًا في السجن، ومنذ القدم عرف أن الفلسفة تأتي على حساب الفكر الأسطوري والعقائدي؛ ولذا عمد السوفسطائيون إلى هدمها، وكان أفلاطون ميالًا للهجوم على الأسطورة والشعر — وهما صنوان — إلا أنه لم ينج منهما تمامًا لأنه بطبعه شاعر، ولما جاءت المسيحية حاربت التراث الوثني برمته ونفته من مملكتها تمامًا، فألغت الدورات الأوليمبية والمسارح وكل ما يمت للوثنية بصلة، ولا سيما الفلسفة فهي العدو الأول للدين والعقيدة، والمثل الصارخ على ذلك ما فعله مسيحيو الإسكندرية المتطرفون والمنتقمون بالفيلسوفة والرياضية هيباتيا حيث مزقوها إربًا إربًا، أما في «عزاء الفلسفة» فتظهر إلهة الفلسفة وقد نزلت من عليائها لتواسي الفيلسوف في أزمته الطاحنة، هنا تبدو إحدى مخلفات التراث الوثني — الفلسفة — وهي تعالج أحد معتنقي المسيحية ومفكريها، هنا تتجلى أروع صورة للزواج المقدس بين المسيحية والتراث الكلاسيكي وعندما يصرح إرازموس في القرن السادس عشر «صلِّ من أجلنا يا سقراط» ora pro nobis Socrate فإنه يردد صدى هذا الزواج المقدس ويؤذن لقيام النهضة.

رويدًا رويدًا عبر القرون الأولى الميلادية بدأ الحوار بين المسيحية والوثنية يحل محل التنافر والعداء، وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا، فالمسيحية وإن ولدت في فلسطين إلا أن محيطها المؤثر كان العالم الإغريقي الروماني، وكان على آباء الكنيسة الأوائل أن يتعلموا اللغة الإغريقية واللاتينية ليشرحوا العقيدة الجديدة ويردوا على أقطاب التراث الوثني، وكان من نتائج ذلك أن البلاغة الإغريقية واللاتينية كما فهموها من كتابات أرسطو وشيشرون أصبحت سلاحهم في الانتصار للمسيحية، وتشهد بذلك كتابات القديس أوغسطين الملقب بشيشرون المسيحية.

واستخدم المنطق الأرسطي في الجدل الديني المسيحي، تمامًا كما سيحدث بعد ذلك عندما يستخدم بعض فلاسفة الإسلام المنطق الأرسطي في جدلهم الديني، سواء داخل حظيرة الإسلام أو مع أصحاب الديانات الأخرى.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان الآن هو: مع خلو عزاء الفلسفة من كلمة واحدة مباشرة عن المسيحية، ومع انغماسها الكلي في التراث الوثني هل يَرِد في هذا العمل الإبداعي

ما هو ضار بالمسيحية أو ما يناهضها؟ هل عزاء الفلسفة الذي يحتفي بالوثنية هذا الاحتفاء الظاهر يحوي ما يناقض أو يحارب المسيحية ويهدمها؟ الإجابة قطعًا بالنفي المؤكد، ذلك أن الروح المسيحية ترفرف على هذا العمل الإبداعي وتشع من بين كل سطوره، فالمؤلف وبذكاء شديد تجنَّب ذكر المسيحية تمامًا، ولكنه دعم هذه العقيدة دعمًا غير مباشر، فمما لا شك فيه أنه اختار الموضوعات والشخصيات الوثنية التي تتوافق مع المسيحية، فمبادئ الرواقية عامة ورواقية سينيكا خاصة تنسجم مع المسيحية بما فيها من زهد ورحمة وقدرة على التحمل، ويقال إن هناك رسائل متبادلة بين سينيكا والقديس بولس، ويقال الشيء نفسه تقريبًا عن التوافق بين الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة من جهة، والمسيحية من جهة أخرى ولا سيما فكرة الاتحاد مع الإله واختلاط ما هو بشري بما هي إلهي.

خلاصة القول إن عزاء الفلسفة عمل يمثل ذروة من ذرى التوافق بين المسيحية والوثنية، فهو نص يحتفي بعقائد وأساطير وفلاسفة الوثنية ممجدًا بطريق غير مباشر المسيحية وداعيًا للتسامح والرحمة والصمود والثبات والتواضع وكافة القيم المسيحية، ولا سيما فكرة ألوهية البشر حيث تقول الفلسفة لبوئثيوس.

Ita ego quoque tibi ueluti corollarium dabo. nam quoniam beatitudinis adeptione fiunt homines beati, beatitude uero est ipsa diuinitas, diuinitatis adeptione beatos fieri manifestum est. sed uti iustitiae adeptione iusti, sapientiae sapientes fiunt, ita diuinitatem adeptos deos fieri simili ratione necesse est. omnis igitur beatus deus.

سأقدم لك لازمة ... corollarium بما أنه من خلال امتلاك السعادة، يصبح الناس سعداء وحيث إن السعادة في الحقيقة هي الألوهية فمن البين أنه من خلال امتلاك الألوهية يصبحون سعداء، وبالمنطق نفسه الذي يصبح به الناس عادلين بممارسة العدل، وحكماء بممارسة الحكمة فإن أولئك الذين يمتلكون الألوهية يصبحون إلهيين فكل إنسان سعيد هو إذن إله.

غني عن البيان أن بوئثيوس يعتقد إذن أن الفلسفة ليست ضد العقيدة الدينية، وإذا كنا نرى أن ابن رشد هو صاحب هذه الفكرة التي أنارت ظلام العصور الوسطى عندما انتقلت إلى أوروبا عبر «فصل المقال»، فإننا في الواقع لا بدَّ وأن نعترف أن دور ابن رشد اقتصر على إيقاظ العقول الأوروبية النائمة، فلما نهضوا وجدَّدوا هذه المقولة الرشدية مسبوقة فهي موجودة عند رجال الدين المسيحي الأوائل المتنورين، وعلى رأسهم بوئثيوس الذي يسبق ابن رشد بما لا يقل عن سبعة قرون.

بقيت لنا كلمة عن ترجمة هذا النص التي نقدم لها، فلقد سبق لنا أن قلنا بأن عصر التوسط للتراث الكلاسيكي بأية لغة أوروبية حديثة قد انتهى بظهور ترجمات المتخصصين، وما زلنا عند رأينا، ولكنه لا يعني القضاء المبرم على جهود المثقفين المصريين والعرب في هذا المجال، فالمثقفون هم الذين بدءوا حركة الاتصال بالتراث الكلاسيكي منذ أن ترجم رفاعة رافع الطهطاوي «وقائع الأفلاك في مغامرات تليماك» وجاء بعده سليمان البستاني فترجم إلياذة هوميروس شعرًا عام ١٩٠٤م، ثم جاء أحد المثقفين غير المتخصصين وهو طه حسين فأسس قسم الدراسات اليونانية والرومانية عام ١٩٢٥م، ثم جاءت جهود لويس عوض ودريني خشبة وشكري عياد وغيرهم، ومن قبل سبق لي أن راجعت ترجمة ثروت عكاشة لأو؟يديوس أعني رائعتيه «مسخ الكائنات» و«فن الهوى»، وتمتعت بقراءة هذه الترجمة أيما متعة مع علمي أنها ليست عن اللاتينية مباشرة بل كانت مهمتي أن أضاهيها بالنص اللاتيني، ومثل هؤلاء المترجمين واسعي الثقافة وأصحاب الذوق الأدبي الرفيع.

والترجمة التي بين أيدينا تدخل في إطار هذه الترجمات الثقافية، ولقد تمتعت بقراءتها حقًّا؛ لأن المترجم يتمتع باطلاع واسع على الفلسفة وبأسلوب رائع وحس أدبي رفيع، ولما ضاهيت الترجمة بالنص اللاتيني الأصلي لم أجد نقصًا جوهريًّا أو خروجًا مخلًّا عن هذا الأصل، وحاولت قدر الطاقة سد أي فجوة بين الترجمة والنص الأصلي، وأتمنى أن يتمتع القارئ بالاطلاع على هذا النص الفريد.

(وبالله التوفيق.)

مقدمة

لا يَذهب بمصابِكَ مثل أن تعلو فوقَه
وتقتله رصدًا وبحثًا وفَهمًا
ثم تَشربَ في جمجمتِه العِبرة.

الكتابةُ أثناء العَد التنازلي للأجَل المحتوم ... هي كتابةٌ أخرى.

الغِناء على إيقاع خطوات الموت الحثيثة المقتربة ... هو غناءٌ مختلف.

الإبداع بين شِدْقَي الموت هو إبداعٌ استثنائيٌّ يَمتح من نبع الحقيقة الخالصة؛ لأنه يأتي من برزخٍ سحيقٍ، وينظر من وراء «مسافةٍ نفسيةٍ» هائلةٍ، فيرى الأشياء بحجمها الحقيقي إذ تختفي الصغائر ولا يعود منظورًا من المعاني إلا كلُّ ما له ثقلٌ وحجمٌ ومقدار.

هكذا كان سِفْر «عزاء الفلسفة» الذي سطره بوئثيوس[1] في زنزانته خلال الأشهر التي سبقت تنفيذ الحكم بإعدامه عام ٥٢٤م.

هذا النص الذي بين يدَيك كان أكثر النصوص رواجًا في أوروبا، بعد الكتاب المقدس، طوال العصر الوسيط وعصر النهضة،[2] وحَظِي من الترجمات والتعليقات بما لم يحظَ به أيُّ كتابٍ آخر، واضطلع بترجمته شخصياتٌ راجحةٌ في ميزان التاريخ، ويكفي أن نقول إن من بين مترجميه الملك ألفرد الأكبر، والشاعر جيفري تشوسر، والملكة إليزابيث الأولى.

عندما نُفِي دانتي أليجييري من فلورنسة رجع إلى كتاب «عزاء الفلسفة» واستَلْهَمَه في كتابة تحفته الخالدة «الكوميديا الإلهية». ولقد وجد العزاء في «العزاء»، ولولاه لانتَحَر مثلما

---

[1] أو بواتيوس، أو بوئتيوس، أو بوئثيوس.

[2] امتدَّ هذا المجدُ الاستثنائي أكثرَ من ألف عام.

فعل بير دل فينيي، الذي لقيه دانتي في «الجحيم»، وكان أيضًا قد اتُّهم ظلمًا غير أنه استسلم لليأس وبَخَع نفسه، وعندما قابل دانتي روح بوئثيوس في «الفردوس» قال عنه إنه أتى:

إلى هذا السلام ...
من المنفى والشهادة.

الكوميديا الإلهية، الفردوس ١٠، ١٢٨–١٢٩

الكتابة الرومانية

هذا العمل الكلاسيكي من أدب السجون يحمل كلَّ ملامح الكتابات الفلسفية الرومانية الكبرى، وقد صاغه المؤلف في هيئة حوارٍ بين السجين «بوئثيوس» والسيدة «الفلسفة»،[٣] فكان نموذجًا للميسم الروماني الفَذِّ في دمج الطلاوة الأدبية بالفلسفة التكنيكية، فإذا كانت الفلسفة اليونانية أكاديميةً نظريةً في مجملها، فإنها حين غُرست في روما صارت منهج حياة (هكذا كانت الرواقية على سبيل المثال)، وكثيرًا ما يقال: إنَّ الفلسفة في روما كانت فلسفةً تلفيقية غير أصيلة، ولعل الأصوب أن نقول: إنَّ العنصر الروماني الأصيل هو صياغة الفلسفة في أشكالٍ يمكن أن تتعامل تعاملًا مُجديًا مع المشكلات الإنسانية اليومية الخطيرة والدائمة.[٤]

قدرُ المفكرين

لا عجب أن يُنفَى الفلاسفة ويُعذَّبوا ويُقتَّلوا وتتقاذفهم العواصف الهوجاء؛ فقدرُ المفكرين أن يُصطدموا بقوى الشر؛ لأن تفكيرهم مختلفٌ عن تفكير العوام، ولأن مِن عملهم أن يقاوموا الأشرار ويكشفوا زيفهم. إنها «متاعب المهنة»، وعلى الفيلسوف، ومن طبيعة عمله،

[٣] حيثما تَرِد كلمة «فلسفة» محصورةً هكذا بين هلالين فالمقصود بها الشخصية الخيالية التي تحاور «بوئثيوس» السجين، وتُمثِّل الحكمة في نص «عزاء الفلسفة»، وحيثما يرد اسم «بوئثيوس» أيضًا بين هلالين فالمقصود به الشخصية الحوارية داخل النص وليس بوئثيوس المؤلف.

[٤] Masterpieces of World Philosophy, ed. Frank N. Magill. George Allen & Unwin LTD, 1954, p. 264.

أن يتحملها بشجاعة، ويُروض نفسَه على معانقة مصيره وحُبِّ قَدَره، وأن يقهر في نفسه خشية الموت، وألا تفتنه السراء ولا الضراء. وإن الفلسفة، بعدُ، لتحمل في ذاتها الترياق والعزاء والسلوى.

لم تكن السلطة ولا الشهرة ولا الجاه ولا المنصب هو ما يطمع فيه بوئثيوس يوم أن زاول السياسة؛ فالفلسفة لا تترك في قلب مُرِيدها مكانًا لَمَطْمَع، إنما دخل بوئثيوس معترك السياسة حرصًا على الصالح العام، ولكي يطبق في السياسة العامة ما تعلَّمه في درس الفلسفة، استجابةً لدعوة أفلاطون بأن يُزاول الحكماء السياسة حتى لا تُترك دفة الحكم لأيدي الجُهال والمجرمين فيُلحِقوا الدمار والخراب بالمواطنين الصالحين.

مارس الفيلسوف سلطته لحماية المستضعفين وكفِّ الظلم والعسف والبطش. زاول الفيلسوف السياسة فكان المآل الطبيعي أن يثير عليه سخط الساسة غير الفلاسفة، وأن يجلب على نفسه العداوات والأحقاد، وتُوقعه المكائد في فخاخها فيُحكم عليه بالنفي والموت، وها هو يندب حظه، ويبدي دهشته من أن يُتاحَ للشرير أن ينال غَرَضه من البريء على مرأى من الله ومسمع، وينوِّع على اللحن الأزلي «إذا كان الله موجودًا فمن أين يأتي الشر؟!» ويصعِّد إلى السماء زفرةً تشفع حرارتها لجرأتها: «أنتَ يا مَن تُمسك بزمام كل شيء، انظر من فوق إلى بؤس الأرض؛ فالبشر ليسوا جزءًا هينًا من هذا العمل العظيم، البشر تتقاذفهم أمواج القضاء، أوقِف، أيها الهادي، الطوفان الجارف، ومثلما تُوثِق السماء اللانهائية بوثاقٍ يحكمها، أوثق أصقاع الأرض وثبتها بوثاقٍ مثله.»

معنى «الوطن»

لم تتأثر «الفلسفة» بهذه الحسرات الطويلة، بل قالت بهدوء وثبات: «إن شئت أن تَعُدَّ نفسك منفيًّا فأنت الذي نفيت نفسك!» أي نفيٍ تتحدث عنه؟ أنسيت وطنَك الحقيقي؟ أنسيت أن وطنك لا نفْيَ منه؟

ينقلنا ذلك إلى مفهوم «الوطن» كما يفهمه الرواقيون:[٥] الوطن ليس جبلًا أو واديًا ألقت بي فيه اعتباطية المنشأ والميلاد ومسقط الرأس، الوطن فكرة … الوطن اختيار،

[٥] صحيح أن بوئثيوس يعني في نصه الوطن الأفلاطوني والأفلاطوني المُحدَث، في جوار الله، غير أنه يعني أيضًا الوطن الرواقي: وطن الأخوة الإنسانية التي تنتسب إلى عقلٍ واحد، وتعود إلى مصدرٍ واحدٍ هو الله.

الوطنُ وطن العقل ... مملكةٌ تشمل في ظلها الناس جميعًا بما يجمعهم من قرابةٍ قائمةٍ على شرف انتسابهم إلى عقلٍ واحدٍ (بتعبير ماركوس أوريليوس)، إنه «مجتمعٌ عقليٌّ» أو إمبراطورية مثالية هي ما كان يعنيه بلوطرخس بقوله: «إن ما مهدت له فتوحات الإسكندر من طريق التاريخ قد أتمته الفلسفة من طريق العقل.» إنه «جامعةٌ روحية» تحل فيها الوحدة العقلية محلَّ الوحدة السياسية.

الوطن ما يَقطُنُني لا ما أقطُنُه، «يبدو أنك نسيت القانون الأقدم لبلدك: إنه حقٌّ مقدسٌ لكل فردٍ اختار الإقامة فيه ألا يُنفى منه أبدًا؛ ومن ثم فلا وجه للخوف من النفي داخل أسواره وحِماه، ولكن أيما فردٍ يرغب عن العيش فيه يكون بنفس الدرجة قد فَقَد استحقاقه أن يكون هناك؛ لذا فإن هذا المكان لا يزعجني بقدر ما يزعجني منظرُك،[٦] ولا ما أبحث عنه هو جدران مكتبتك المزينة بالزجاج والعاج، بل أبحث عن كرسي عقلك! ذلك هو المكان الذي أوْدَعتُ فيه يومًا لا كُتُبي بل الشيء الذي يجعل للكتب قيمةً ... الفلسفة التي تحتويها الكتب، الأفكار التي تذخرها.»[٧]

التشخيص

في بداية فحصها للمريض تسأله «الفلسفة»: «هل تَذكر ما هي غاية الأشياء جميعًا، وما الهدف الذي تتجه إليه الطبيعة بأسرها؟» فلما وجدَته ناسيًا قالت: «فهل تعرف من أين أتت الأشياء جميعًا؟» قال: «نعم، من الله»، قالت: «فهل يجوزُ أن تعرف الأصلَ وتجهل الغاية؟!» ولكن الأهم من هذه الأسئلة الكونية، التي تؤسس الإطار لحياة الإنسان، هو أنها وجدَته ناسيًا من هو وما هو دوره كإنسان!

هكذا يأتي التشخيص قاطعًا كالسيف ثاقبًا كالرصاصة: النسيان[٨] «فلأنك سادرٌ في نسيانك فقد رُحتَ تتحسر على أنك منفيٌّ ومجردٌ من ممتلكاتك، ولأنك لم تَعُد تعرف ما هي

---

[٦] أي لا يزعجني إنك في سجنٍ مادي؛ بل يزعجني إنك سجنت نفسك طوعًا في سجنٍ عقلي!

[٧] صفوة القول إن المكتبةَ هي في العقل، والسجنَ هو في العقل، والوطن هو في العقل.

[٨] لكي يكتمل في ذهننا مفهوم «النسيان» كتشخيصٍ لحالة «بوئثيوس» (الشخصية الحوارية) فلا بدَّ لنا من أن نربطه بنظرية «التذكر» anamnesis الأفلاطونية، وبغيرها من المفاهيم الأفلاطونية المحدثة، مما سوف يرد، بتفصيلٍ مناسبٍ، في موضعه.

بالضبط غاية الأشياء، فقد حسبت أن التافهين والمجرمين أقوياء وسعداء، ولأنك نسيت الطرائق التي تُسَيِّر العالم فقد ظننت أن ضربات الحظ تتخبط هنا وهناك بغير ضابط.» ومن التشخيص الصحيح يبدأ العلاج الصحيح، ومن الجذوة المتبقية من ذاكرته الخابية تكون الخطوة الأولى ... «فما تزال لدينا الشرارة الكبرى لشفائك، وهي رأيك الصائب عن إدارة الكون، فأنت تؤمن أن الكون لا تحكمه المصادفة العشواء بل العقل الإلهي، إذن لا تخشَ شيئًا، فمن هذه الشرارة الضئيلة سوف ينبثق فيك وهج الحياة.»

عجلة الحظ Wheel of Fortune

لعلك تأسى على تَبَدُّل الأحوال وتغير الحظ، وعلى سقوطك من ذرى المنصب والثراء إلى حضيض اليأس والقنوط، فلتتعرف إذن على الأقنعة العديدة لهذا المسخ (الحظ) الذي يُغوي بالصحبة نفس الأشخاص الذين ينوي أن يخدعهم ويقلب لهم ظهر المجن، يخطئ من يظن أن الحظ قد أدار له ظهره، فالتغير هو جوهر الحظ وماهيته، والحظ في تقلبه وتبدله إنما هو حافظٌ لعهده وثابتٌ على مبدئه! وكل من ارتضى أن ينحني للحظ ويضع عنقه تحت نير الظروف الخارجية فإن عليه أن يتحمل النتائج، وأن يقبل أحكام اللعبة إذا اقتضته بعد الصعود إلى القمة أن يهبط إلى القاع، وأن يعلم أن الحظ إذا ثبت على حالٍ لا يعود حظًّا.

هذه إذن أحكام اللعبة، وفهمها، مجرد فهمها، يعفيك من أن تبتئس حيث لا ينبغي الابتئاس، فإذا كنت تَرهن سعادتك بعطايا الحظ فإنها لن تشفي حاجتك بل ستزيدها اشتعالًا، أما إن كنت غير أسيرٍ لها فإن فقدانها لن يسلبك أمنك ولن ينال من سعادتك.

التغير سُنَّة الطبيعة، ليس شقاءً إذن إلا ما تَعُدُّه أنت كذلك، وكل قدرٍ هو قدرٌ سعيدٌ ما دمت تتلقاه بثباتٍ ورباطة جأش، لماذا تبحثون عن السعادة خارج نفوسكم وهي كامنةٌ فيها؟ إذا كنت سيد نفسك فإن لديك من الثراء الداخلي ما لا يستطيع الحظ أن يسلبك إياه.

الثبات على التغير! ... ذلك هو طبع الحظ ودأبه ودَيْدَنه.

فلتفرح إذن بأنك كشفت الوجه المتقلب لهذا الإله الأعمى، واهنأ بإحدى الراحتين، «فلقد تَخَلَّى عنك من لا يأمن له أحدٌ ولا يثق ببقائه إلى جانبه على الدوام ... والحق أنك لو تَذَكرت طبعه وأساليبه ومزاياه لتبيَّنت أنك لم تُفِد منه ولم تخسر بفقدانه شيئًا ذا بال.»

هكذا الفلسفة دائمًا، الفهم بردٌ وسلام ... الفهم ترياق.

ليس عليك أن تُغيِّر ما لا قِبَل لك بتغييره، وبحسبك أن تفهمه!

الدروب الخطأ إلى الخير

تذهب «الفلسفة» إلى أن الرغبة في الخير الحقيقي هي شيءٌ متأصلٌ في نفوس البشر جميعًا، وما يَحيد بهم عن جادَّة الخير سوى الحمق والخطأ والسير في الدروب المُضلَّة إلى الخيرات الزائفة، إن الخير الأسمى، أو السعادة الخالصة، هي هدف البشر جميعًا، أخيارهم وأشرارهم على السواء، فأما الأخيار فيسعون إليه من الطريق الصحيح وبالنشاط الطبيعي وهو ممارسة فضائلهم، وأما الأشرار فيقصدون إلى الشيء نفسه ولكن من الطريق الخطأ … من خلال شهواتٍ ليست بالطريقة الصحيحة ولا الطبيعية لاكتساب الخير: الثروة، المنصب، الجاه، الشهرة، النفوذ، اللذة … إلخ، ومِن ثَمَّ فالأخيار أقوياء لأنهم يحققون الغاية، والأشرار عجزة لأنهم يُقصِّرون عنها، ولا يُغيِّر من الأمر أن الأخيار قد يُنفون ويضطهدون والأشرار قد يسودون بعض حينٍ ويزدهرون في الظاهر الكاذب.

المال والثروة

انظر إلى نقائض المال وغراباته:

- إنه لا يكون ذا قيمة إلا حين يغدق به، أي حين لا يعود مملوكًا!
- وهو لا يقبل الشراكة دون انتقاص (مثلما يقبلها الصوت مثلًا والفكر والحب)، ولا يأتي لواحدٍ إلا بإفقار الآخرين.
- وهو يُتخم ويؤلم إذا زاد عن الحاجة.
- وهو لا ينفي العَوَز بل يؤجِّجه، ولا يسد الحاجةَ بل يخلق حاجاتٍ جديدةً تنبت إلى الوجود شيطانيًّا كرءوس الهيدر.[٩]
- وهو لا يتحلَّى بخاصية طبيعية تمنعه من أن يُسلَب من أصحابه رغمًا عنهم.
- وهو يصطحب تحت نيره بئس الرفيق: الخوف، التوجس، شبح اللص والقرصان وقاطع الطريق.

[٩] وحشٌ أسطوري ذو رءوس تسعة كلَّما قطع منها رأس نبت مكانه رأسان، وسوف يأتي ذكره في أعمال هرقل في الكتاب الرابع، قصيدة ٧.

- وهو يجعلك بحاجةٍ إلى عونٍ خارجي لكي تحميه، وبذلك تنعكس القضية وإذا بالثروة التي يرتجى منها أن تجعل المرء مكتفيًا بذاته قد «أحوَجَته» في الحقيقة إلى غيره!
- وهو، فيما تَملِكه، فإنه بدوره يَرهَنك ويملكك ويحدد إقامتك؛ لكي تقوم على رعايته بدلًا من أن يقوم هو على رعايتك، إنه وحشٌ مسيخ: تُضَخِّمه فيقتلك، وتُسمنه فيأكلك، ويُفسد شفرتك ويحجِّر أوصالك على أرائك الكسل والدَّعة، ويُغشي عليك الصحبة ويجرد علاقاتك من هوية الحب ومن شروط الصداقة، ويحرمك من اختلاجة الشوق وهزَّة المنال وطبخة الجوع، إنه نفيٌ آخر يحرمك من أنس الحياة الطبيعية ويلقي بك في حياةٍ افتراضيةٍ اصطناعية موحشة.

«الطبيعة يكفيها القليل، أما الجشعُ فلا يُشبعه شيء»، الغِنَى أن تكون «غنيًّا عن» ... «لا غنيًّا بـ».

كل ما فاض من مالك عن حاجتك الحقيقية وأمانك الفعلي فهو عبءٌ وهمٌّ ووسواس، وقيدٌ عبودي، وفقرٌ مقلوب.

المنصب والسلطة

ليس بوسع أعنف الزلازل ولا أعتى السيول أن تُلحِق من الخراب ما يُلحِقه المنصب والسلطة حين يقعان في أيدي الأشرار، «فإذا تَصادَف أن وقعت المناصب لرجالٍ أمناء فلا شك أن الخير الوحيد فيها إذَّاك هو أمانة الرجال الذين يتولون المناصب، يترتب على ذلك أن الشرف لا يأتي إلى الشريف من المنصب بل يأتي إلى المنصب من الشريف.»

لماذا يتحرق أغلب الناس إلى المناصب؟ ألأُبهتها ونفوذها؟ ولكن على مَن تريدون أن تمارسوا الأبهة والنفوذ؟ «أليس من المضحك أن تروا مجتمعًا من الجرذان وقد انبرى جرذٌ منهم يدَّعي لنفسه حق التسلط عليهم والتحكم في شئونهم؟ أتحبون التمتع بسلطة البطش والانتقام؟ وهل هناك شيء يمكن أن توقعه بأحدٍ وأنت بمأمنٍ ألَّا يقع لك يومًا على يد شخصٍ آخر؟»

«لو كانت المناصب خيرًا بطبيعتها لما وقعت في أيدي الأشرار ... أم تريد المنصب لكي تنعم بالكرامة والتبجيل، وتتميز عن الناس بالأبهة والشرف؟ فاعلم أنك إذا أردت أن تتألق في أبهة المنصب فسوف يتعيَّن عليك أن تنبطح لمن أنعَمَ عليك به: أي أنك إذا أردت أن تفوق الآخرين في الشرف والكرامة سيكون عليك أن تُرخص نفسَك وتهينها بالتَّزَلُّف!»

إذا لم تكن نفسُك كبيرةً بذاتها فلن ينفعها المنصب، وعندما يُوسَّد المنصب إلى غير أهله فإنه لا يجعل منه أهلًا على الإطلاق، بل يفضحه لا أكثر ويكشف ضعفه وضآلته.

«الكرسيُّ الواسع هو أول الشامتين بصاحبه.»

المجد والشهرة

أما الشهرة فمجيئها، في الأغلب، اعتباطي وبقاؤها غير مضمون، والأغلب أن تكون زائفةً يكتسبها غير أهلها من خلال الآراء الزائفة للدهماء، ثم تنهكه في محاولة الحفاظ عليها، وما قيمتها عندما ينتهي المرء إلى الموت الذي هو نهايةُ كلِّ شيء؟ وكم هي هزيلةٌ في كل حالٍ ولا وزن لها: فمهما امتدَّ صيتُك في الأرض ودوَّى في التاريخ فإنه صفرٌ حين يقاس إلى لا نهاية المكان، وصفرٌ حين يُقاس بأبدية الزمان.

الشهرة؟ ... الأضواء؟ ... إنها البَرَص الذي يهرب منه الفيلسوف، والعهر الرخيص الذي يتأفف منه كلُّ من أحصنته الحقيقة.

الملك

يقول شكسبير: «لا يَستقر قرارٌ للرأس الذي يحمل التاج.»

قسط الملوك من الشقاء أكبر من غيرهم، فهم يعيشون تحت حد السيف، وهل تَعُده قويًّا ذلك الذي لا يمشي إلا مخفورًا بحرسٍ؛ لأنه أشد خوفًا من رعاياه الذين يرهبهم، والذي لا بد له، لكي يبدو قويًّا، من أن يعيش تحت رحمة من يخدمونه؟ ألا ما أبشع هذا السجن وما أوحشه!

يحرمك المُلك من نعمة الصداقة الحقيقية، ومن تمييزها إن وُجدت! ما دامت شبهة التملق تُغشِّي على المشهد كله، فيا له من حرمان.

أي سلطةٍ هذه التي تبث الخوف في نفوس أصحابها؟ إن رغبتَ فيها لم تمنحك الأمان، وإن رغبت عنها لم تتركك وشأنك؟ ولن ينفعك إذًّاك أي صديق ربطته بك ثروتُك لا فضيلتك، فصديقك في السراء ينقلب عدوًّا في الضراء، وليس أقدر على إلحاق الأذى من صديقٍ انقلب عدوًّا، ذلك أنه يعرف مواطن ضعفك ... يعرف أين ثغرتُك، وأين مقتَلُك و«كعبُ أخيلك»!

لذات الجسد

«وماذا أقول عن لذة الجسد؟ إن السعي إليها محفوفٌ بالهم، والشبع منها مملوءٌ بالندم، كم أورثت أجساد المتهالكين عليها من أسقامٍ وتباريح، وكأنها ضربٌ من عقاب الإثم ... أي سعادة في الشهوات إذا كان الأسى هو نهاية اللذة؟ يعرف ذلك كلُّ من يتجشم استعادة ذكرى انغماساته.»

وربما يكون مرد الكآبة التي تعانيها كلُّ الكائنات عَقِب قضاء الوطر هو إحساس الكائن بأنه خُدع ... بأنه بُخس ... بأنه استُدرج! لَكَأن الطبيعة كانت تقضي به مأربها لا مأربه!

المكيدة الكامنة في صُلب الحياة هي أن لذة الإشباع تأتي دائمًا أقل بكثيرٍ مما وعدنا به الجوع!

تأمَّل السماء إذن، تأمل قبة السماء اللانهائية المرصعة بالنجوم، ثم جرِّب أن تَسلُك شئونك وشجونك في هذا السياق الكوني الكبير، وأن تنظر إليها بعين الفلك الدَّوار، ستُدرِك على الفور أنها أضحوكة، وأنها أهون عليك وعلى الكون من أن توزن، ثم تململ وانفضها عنك كما تنفض هباءة، واستأنف وَجْدَك بهذا المُلك العريض.

خطأ تقسيم البسيط

أين مكمَنُ الخطأ هنا؟

لماذا يَضِل الناس عن طريق السعادة الحقيقية، الذي تَهدِي إليه الفطرة ذاتها، إلى تُرَّهاتٍ لا تفضي إلى شيء؟!

يكمن خطأ الإنسان في أنه «يأخذ ما هو بسيطٌ وغير قابل للقسمة ويحاول تقسيمه، فيُحيل حقيقته إلى زيفٍ وكماله إلى نقص ... حين يعمد البشر بحماقتهم إلى تقسيم ما هو بطبيعته واحدٌ، وإلى تحصيل جزءٍ من شيءٍ لا أجزاء له، فإنهم لا يحصلون على الجزء الذي لا وجود له، ولا على الكل الذي يولونه اهتمامًا.»

السعادة «كلٌّ» بسيط، ولا وجود لها في هذه الجزئيات الكاذبة التي ما تكاد تقبض على واحدةٍ منها حتى تُفلِت منك الأخريات!

الخروج من الكهف

«لديك إذن طبيعة السعادة الزائفة وسببها معًا، فلتُحوِّل نظرتك الآن في الاتجاه المقابل ولسوف ترى لتوِّك السعادة الحقيقية التي وعدت بأن أبينها لك»، ولكي تكون جديرًا باكتشاف مصدر هذا الخير الأسمى ينبغي، كما قال أفلاطون في محاورة «طيماوس»، أن نبتهل إلى الله، فبدون ذلك لا يستهل عملٌ ولا يُشمَّر لأمر.

المخطط هنا أفلاطوني لا شك فيه، وتحويل النظرة عما هو زائف إلى ما هو حق، وإدراك أن الله هو الخير الأسمى، إنما يستند على صعود الروح في أسطورة الكهف الشهيرة في الكتاب السابع من «الجمهورية»، فصعود الروح، أو تربيتها، أشبه بصعود رجل من كهف مظلم كان قابعًا فيه ومقيدًا منذ الطفولة لا يملك أن يرى غير ظلالٍ على الجدار،[١٠] وحين فَكت قيوده انتقل خطوةً خطوة إلى النور، حتى تمكن في النهاية من أن يرى الشمس نفسها — مثال الخير.

غير أن صعود الروح ليس مجرد عملية تربية، فهو أيضًا عملية «تذكر» تنصهر فيها نظرية التذكر الأفلاطونية بمفاهيم أفلاطونية محدثة تتعلَّق بانطواء الروح على ذاتها واستضاءتها بنورها الباطن، من هنا كان تشخيص «الفلسفة» لحالة «بوئثيوس» هو «فقدان الذاكرة» أو «النسيان»؛ نسيان طبيعته الحقة، إنه لَيعلمُ بالسعادة الحقيقية، غير أن ذاكرتَه، كشأن غيره من الناس، كليلةٌ غائمة، إن للروح نزوعًا طبيعيًّا، وانتحاءً فطريًّا، إلى الله، غير أنها كثيرًا ما تَحِيد وتُحبط في مسالك مضلِّلة، ولكن ما هو إلا أن يشيح بنظرته عما هو باطل إلى ما هو حق حتى تَتمَّ له عملية التذكر ويصعد بروحه إلى الرحاب العُلَى، ويدرك أن الله هو الخير وهو السعادة، ويتعرف على وطنه الحقيقي الذي نسيه في مُعترك الحياة، فيهتف قائلًا: «إنه هو … هذا وطني، منه أتيت وفيه سأبقى ولا أبرح أبدًا»، فإذا ما عنَّ له أن يُلقِي نظرةً على الأرض المعتمة من ورائه فلسوف يرى الحياة من منظور الأزل، ويرى الأشياء رؤيةً إلهية:

سيرى الطغاةَ الظالمين مَنفيين منبوذين لا مأوى لهم.

سيرى لَذَّات الأرض وهمومها، وتقلبات الحظ وألاعيبه، كوميديا لا تحتمل إلا الضحك.

أما «الشر» — عفريت الفلاسفة وحجة الملحدين — فلن يرى له وجودًا!

---

[١٠] Watts, V., Translation of Boethius' The Consolation of Philosophy, revised edition, Penguin Books, 1999, p. xxvi.

بين حرية الإرادة وسابق العلم

من تمام العزاء أن يعرض بوثيوس لمعضلةٍ تقض مضجع المفكرين، وما تزال شوكةً في حلق اللاهوتيين: ثمة «تنافر» incompatibility ظاهر بين «حرية الإرادة» (الإنسانية) free will و«سابق العلم» (الإلهي) prescience وهي شوكةٌ لأن معقبات هذا التنافر وخيمةٌ حقًّا تبلغ أن تكون سقوطًا ذريعًا لكلِّ معنى وكل قيمة!

حين تؤخَذ كل حقيقةٍ من هاتين على حدةٍ تكون حقًّا لا شك فيه، غير أنهما لا يمكن أن تؤخذا معًا في آنٍ واحد، لكأنهما تتأبيان أن تخضعا لنيرٍ واحد! أيمكن أن يكون خلافُهما وهمًا؟

إذا كان الله يعلم كل شيء[١١] فإنه يرى كلَّ ما سيحدث في المستقبل رؤيةً مسبقة ذات يقينٍ مطلق، المستقبل إذن «محتومٌ» determined «مختومٌ» sealed لا يملك أحدٌ تغييره، وكل ما سيحدث فهو محددٌ سلفًا بضرورةٍ مطلقةٍ، تقيد أفكار الإنسان وأفعاله بمسلكٍ واحدٍ في الحدوث ما دام البشر مدفوعين للخير أو الشر لا بإرادتهم بل بضرورة قاهرة لما يتعيَّن أن يكون.

لا وجود إذن لحرية الإرادة البشرية، وإذا انتفت حرية الإرادة تنتفي معها المسئولية ولا يعود هناك معنًى ولا سند للثواب والعقاب، في الأولى والأخرى، ولا يكون للفضيلة ولا الرذيلة أي وجود،[١٢] ولا تأثير للرجاء والدعاء.

كيف يمكن لـ «الفلسفة» أن تنقذ الموقف؟ كيف تفض هذا الاشتباك بحيث يبقى كل من «العلم المسبق» و«حرية الإرادة» قائمين دون أن ينفي أحدهما الآخر؟

تقول «الفلسفة»: «أولًا، ثمة حرية إرادة، فحرية الإرادة جزءٌ من ماهية العقل وطبيعة التعقل، الفكر حرٌّ بحكم التعريف، فمن غير الممكن أن توجد طبيعةٌ عقليةٌ من دون حرية إرادة، فما من كائنٍ يمكنه بالطبيعة استخدام عقله إلا وله قوة الحكم التي يمكنه بها، بدون أي عونٍ آخر، أن يتخذ القرار في كل أمر، وأن يميز بنفسه بين الأشياء التي يريدها والأشياء التي يتجنبها ... كل ما لديه عقلٌ فلديه أيضًا حرية أن يريد أو لا يريد.»

---

[١١] أي يتصف بـ «شمول العلم» omniscience.

[١٢] أي أن «الحرية» هي التي تأتي بـ «القيمة» إلى «الوجود»، (يتبين من ذلك أن أعداء الحرية هم في حقيقة الأمر أعداء القيمة التي يزعمون حمايتها في العادة!)

حرية الإرادة، إذن، أمرٌ واقعٌ لا ريب فيه، ويبقى أن ننظر في مسألة «سبق العلم الإلهي» وكيف يقوم على مستوى لا يتقاطع مع حرية الإرادة الإنسانية، ولا يمارس عليها تأثيرًا عليًّا:

الرؤية تُدرِك الشيء ولا تُسببه، ومن الممكن للحدث أن يعُرف دون أن تكون المعرفة سببًا لحدوثه.

وكل ما يُعرف فإنما يُعرف وفقًا للقدرة المعرفية للعارف لا لطبيعة الشيء المعروف (المدرك)، ومثلما أن معرفة الأشياء الحاضرة لا تضفي ضرورةً على ما يجري في الحاضر، فإن سبق العلم الإلهي لا يضفي ضرورة على ما سوف يحدث في المستقبل، كل ما في الأمر أن القدرة المعرفية السرمدية تتيح لنظرة الله أن ترى كل شيء بطريقةٍ تتجاوز طريقة العقل البشري في رؤية الأشياء، السرمدية ليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل: السرمدية حضورٌ مقيم، ولله في حضوره السرمدي معرفةٌ تتخطى كل تغير زمني وتبقى قائمةً في فورية حضوره، إنها تضم كل الأعماق اللانهائية للماضي والمستقبل وتنظرها في فورية عرفانها كما لو كانت تحدث في الحاضر، المعرفة الإلهية المسبقة لا تُغيِّر من طبيعة الأشياء أو خصائصها، بل، ببساطة، ترى الأشياء حاضرة لها تمامًا كما سوف تحدث ذات يوم في المستقبل، إن المعرفة لا وطأة لها على المجريات ولا توقع اضطرابًا في الأشياء، والمعرفة الإلهية بحكم سرمديتها تميز بلمحةٍ واحدةٍ كل ما سوف يحدث دون أن تقحم عليه ضرورةً ليست فيه، المعرفة الإلهية تقع على مستوى خارج عن المنظور البشري، ومِن ثَمَّ فإن حرية الإرادة لا تُضار بها على المستوى البشري من العرفان، والمسئولية الأخلاقية بالتالي لا تنتفي ولا تمتنع.

صحيح أن من الصعب على العقل البشري تصور ذلك، تمامًا مثلما أنه من الصعب على الحواس أو المخيلة فهم طريقة العقل في إدراك الكليات بينا لا ينظر إلا في كياناتٍ مفردة، وينبغي أن نُسلِّم بأن العقل البشري المحدود، المرتكز على قطعة لحمٍ على حد تعبير شكسبير، لن يستوعب كل شيء عن ذات الله وطبيعة علمه وطرائقه في تصريف الخلق.

«لله معرفةٌ مسبقة، ويستوي في عليائه مشاهدًا كل شيء، ولما كانت سرمدية نظرته تُصرِّف المثوبة للأخيار والعقوبة للأشرار فهي تمضي بانسجام مع نوعية أفعالنا المستقبلية، الأمل في الله ليس عبثًا، والدعاء لا يذهب سدًى، فهما إن كانا صالحين لا يمكن إلا أن يُجابا.»

جوهر العزاء

الفرق إذن هو فرقٌ في «المنظور» perspective بين رؤية الله ورؤية البشر، وإنما يأتي العزاء من محاولة العلو إلى رؤية أحداث العالم كما يراها الله بقدر المستطاع، وبقدر ما يمكن أن يُتاح للبشر، وإنما يأتي القنوطُ نتيجةً للرؤية الضيقة والمغرقة في البشرية والأرضية، مهمة الفلسفة أن ترتفع ببصائر الإنسان وأن تهبه شيئًا من الرؤية الإلهية، وما دام للفلسفة مثل هذه القدرة فإنها أمل الإنسان في العزاء، إن من المتعذر عليك أن تفهم المحنة بمعزلٍ أو تفهم البلاء على حدة، بل يتعين أن تضعه في المخطط الكلي للأشياء، أن تفعل ذلك يعني أن تتفلسف، إن الفلسفة لا تغير الأحداث ولا تعكس الحظ، غير أنها تقدم فهمًا تعود بعده أحداث الحياة مقبولةً بل ممتعة.

وإذا كانت الاستجابة المعتادة للكوارث هي النحيب والعويل، وطلب الخلاص حيث لا خلاص، فإن الفلسفة تُعَلِّم أن ما يحتاجه الإنسان حقًّا ليس التغيير بل الفهم، وبلمسةٍ فنيةٍ محسوبةٍ تتركنا «الفلسفة» في موعظتها الأخيرة لـ «بوئثيوس» وقد ارتقينا إلى مستوًى علويٍّ، نَشخَص بأبصارنا إلى السماء، ولدينا من حرية العقل ما يَقْهَر القَهْر، فلا نعود نرى القيدَ قيدًا، ولا نعود نرى السجن سجنًا.

عادل مصطفى
٢٠٠٧/٤/٥